مفكرة

بقلم غسان كنفاني

... ولو قدّر لي أن أعيد كتابة ذل العقال !

حتى اليوم اكون قد امضيت اليوم العاشر في هذه الغرفة التي من المفترض ان تكون سجني لمدة خمسة عشر يوما ، وقد صار السبب معروفا : فقد نشرت « الهدف » مقالا اعتبر ماسا « بصاحب الجلالة المعظم ملك العربية السعودية » ، وقد اخذت السلطة في لبنان على عاتقها مسؤولية « التعويض » على تلك « الجريمة » بحبسي مدة خمسة عشر يوما ..

ولست ادري ان كان مهما القول بان ذلك المقال لم اكتبه انا ، انما تحملت مسؤوليته امام القضاء، ليس فقط لان الشكل القانوني يعتبرني مسؤولا عن كل ما ينشر في الصحيفة ولكن اولا لانني اؤمن بما ورد في ذلك المقال تماما ..

ويخيل الي الان ، بعد ان قرأت المقال باعتناء عدة مرات ، انه لا يمس شخص صاحب الجلالة ، ولكنه يمس سياسته وسياسة نظامه فحسب ، وهما سياسة ونظام يستحقان كل كلمة وردت في ذلك المقال ، بل اكثر بكثير ، ولو قدر لي ان اعيد كتابة ذلك المقال لجعلته ، فيما يتعلق بادانة ذلك النظام الرجعي الذيلي العشائري الاستبدادي ، والخاضع بملء ارادته للنهب الامبريالي والشريك بعملية النهب هذه ، اشد عنفا .

وقد اخذت افكر ـ ولدي متسع من الوقت لذلك ـ بان الكثيرين ما زالوا يخلطون بين « القدح والذم والتحقير » ، وبين النقد السياسي القاسي ، فما الذي يهمنا ، نحن ، في « الهدف » ، من اناقة الرئيس الفلاني او اخلاق الملك العلتاني ، من وسامة هذا او قباحة ذاك ، من تبذله وتهتكه او من تقواه واستقامته؟ نحن نعرف ان الرئيس او الملك لا يصنعان النظام ، بل ان النظام هو الذي يصنعهما ، فما الذي يعنينا من « قدح » و « ذم » و « تحقير » هذا الشخص او ذاك ، اذا كنا على يقين ان المسالة التي نتصدى لها هي اكبر بكثير من ان تكون مختصرة في شخص ، مهما كان مركزه ؟

اننا نهاجم وننتقد القرار السياسي الذي يتخذه هذا الملك او ذاك الرئيس فيما يتعلق بمسائل تهم اعدادا لا تحصى من البشر ، ولعل ذلك الملك او هذا الرئيس يحسبان انهما يشكلان مع قرارهما السياسي شيئا واحدا ، بحيث ان اي نقد لذلك القرار السياسي هو تحقير مباشر لصاحبه ، فاذا كان الامر كذلك ، فهل يتوجب علينا نحن ان نلتزم بمثل هذا الاعتبار ؟ هل من الضروري ان نظل مؤمنين بـ « انا فرنسا وفرنسا انا » لمجرد ان صاحب تلك الـ « انا » يعتقد ذلك ؟

مهما يكن من امر فقد انصرفت الى تلك العزلة الاجبارية ، وانا انوي ان استريح حقا ، على ان ذلك يظل مستحيلا ، فحتى الاستراحة لا يمكن فرضها بالارغام .

ولعل مسالة السجن كلها ، في مثل الحالة التي انا فيها ، تشكل مسالة اغاظة ليس اكثر ، فهل المقصود بسجن المرء مضايقته واغاظته ومقاهرته ، ام ماذا ؟ هل السجن عملية ردع ؟ ام تربية ؟ هل هي عقاب ؟ وما معنى العقاب في مثل هذه الحالة ؟

انني اطرح هذه الاسئلة على نفسي فيما يتعلق بحالة تقوم فيها الدولة بحبس صحافي او كاتب لانه قال رأيه ، واعتبرت الدولة ان ذلك الراي يشكل قدحا وذما لشخص ملك ما ، بينما يعتبر الكاتب انمثل هذه التهمة بالذات تفقد المقال قيمته وتجعله بلا معنى ، فالمقال ليس الا نقدا لموقف سياسي ، مسؤول عنه ذلك الملك الذي هو بدوره نتيجة منطقية لبنية النظام الذي يجلس على قمته !..

لعلهم يحكمون علينا بالضجر ؟ فلست اجد ـ هنا ـ عقابا اشد قسوة من ذلك ، ومع هذا فانه عقاب غير رادع .

فما هو السجن ؟

يخيل الي ان الاقدمين استخدموا السجن كوسيلة مؤقتة للاحتفاظ باسراهم قبل سوقهم الى الموت في الاحتفالات ، او قبل « اقناعهم » بقبول العبودية ، ولكن هل تراهم استخدموا السجون كعقاب في حد ذاتها ؟ لا اعتقد ، فالفكرة تبدو مضحكة .

فاذا ترجمنا ذلك الى لغة العصر ، فالسجن هو آذن « مرحلة تدجين » للخارجين عن القانون او عليه ، وهو من جهة اخرى له قيمة الردع التي تلعب دورا مسبقا في منع الجريمة .

اننا مهتمون هنا ـ طالما نحن في نطاق قضية سياسية ـ بالسجن بصفته « مرحلة تدجين » . فذلك خلق فن التعذيب لارغام السجين على قبول « التدجين السياسي » ، ورغم ان النتائج على امتداد التاريخ لم تكن مشجعة فقد ارتقى هذا « الفن » ـ او انحط ـ الى مرتبة العادة .

ومع ذلك فقد تعلم الكثيرون داخل السجون ، بدل الدخول برؤوس مطاطئة الى حظيرة السلطة وقبول منطقها ، كيف يتمردون على ذلك ـ اي ان السجن (او الاسر) كمرحلة تدجين سياسي قد اخفق في غالب الاحيان ، وبدلا من ذلك تعلم الكثيرون منهم يقاومون لعبة التدجين تلك ، ايجدية النضال في سبيل الحرية ..

ان الصراع في السجون يكون غالبا ، ليس بين رغبة السلطة في تدجين الاسير (اي استعباده لمصلحة منطقها) وبين رغبته في البقاء حرا ، فمثل هذا الصراع لا ينتهي بانتصار السجان ، بل هو بين الانسان الاسير وبين محاولة تحطيم انسانيته التي تستعصي على الاستعباد . اي كسره .

وهكذا تتحول الدولة العصرية ، في هذا المجال ، الى الشكل البدائي للسلطة فيما يتعلق بفكرة السجن . فالبدائيون كانوا يعتبرون السجن مرحلة انتقال نحو واحد من احتمالين : الموت او الاستعباد ـ وما زالت المسالة كذلك(رغم كل القشور اللامعة التي تغطي الجوهر) فبعد كل شيء لا يمكن هضر التاريخ الانساني وتحطيم منجزاته ، من حيث الشكل على الاقل الموت : بمعنى كسر الانسان واستلابه ـ والاستعباد : بمعنى تدجينه سياسيا وادخاله الى حظيرة السلطة .

ان المسالة التي انطلقت منها مسالة صغيرة ، فحين تكون هذه السطور قد ظهرت في « الهدف » اكون قد خرجت من محبسي منذ اربعة ايام ، فالايام الخمسة عشر ليست شيئا في الحقيقة ، رغم ان كل يوم منها يمتد الى ابد الضجر قبل ان يمضي ، ويتحول فورا الى ذاكرة صباح اليوم التالي .. ولكن ذلك كله يعطيني فضيلة واحدة ، هي التامل ، هي امتحان المعطيات من جديد واستكشافها ، وما زلت حتى الان مندهشا من انعدام التوازن بين الفعل (اي ذلك المقال) وبين ردة الفعل (السجن ١٥ يوما) ..

وذلك كله يذكرني بالاسلوب العتيق في « التربية » ، اسلوب آبائنا واجدادنا الذين كانوا « يزربوننا » في غرفة ضيقة حين كان يصطدم عالمنا بعالمهم ادنى اصطدام .

ومع ذلك فقد شق عالمنا طريقه ، واكاد اقول ان عالم آبائنا واجدادنا يتجه الى تلك الغرفة الضيقة التي كانوا « يزربوننا » فيها ..

اعترافات شارل مالك « بالنهار » !

ادلى شارل مالك بدلوه في « حرب المذكرات » و « معارك اليوميات » الجارية على قدم وساق في الصحف اللبنانية ، وبراعته المعروفة ادرك شارل مالك ان هذا النوع من الحروب الجديدة سيدخل الى التاريخ مثلما دخلت الحرب الباردة، وحرب الحافة وحافة الحرب ، وغيرها من الحروب ..

الا ان التوفيق لم يحالف شارل مالك هذه المرة ، ربما لانه يختلف عن هيكل ، مثلا ، بانه اكثر اكاديمية ، مما يضطره لان يكون اكثر امانة !

ففي ذكريات شارل مالك عن حديثه مع شو ان لاي ايام مؤتمر باندونغ اوضح لنا بصورة قاطعة دوره في ذلك الحديث، ولم يتردد في كشف النقاب عن الخدمات التي قدمها للسياسة الاميركية من خلال ذلك الحديث ، اذ وسط كل التعابير الدبلوماسية كان دور شارل مالك، كناقل لتهديدات اميركية ضد الصين ، واضحا شديد الوضوح ، وهو لم يوفر لحظة واحدة كي يجعل شو آن لاي يفهم مهمته كمبعوث اميركي ، وليس كدبلوماسي لبناني ، من العالم الثالث ، يمثل دور وسيط الخير !

لم يقدم شارل مالك في حياته كلها اعترافا بانتسابه السياسي للامبريالية الاميركية ، مثل تلك الوثيقة التي نشرتها له النهار صباح الاحد الماضي !

الالتزام السياسي والعمل الفني

.. وكنت اعتزم ان امضي الوقت بقراءة اعمال ادبية ظللت طوال عامين على الاقل اؤجلها . واخيرا استطعت ان اجلس مطولا الى « سلكا فالكا » ، وهي رواية طويلة للكاتب الايسلندي هالدور لاكسنس ، الذي حاز ذات يوم على جائزة نوبل .

وقد طبعت هذه الرواية لاول مرة عام ١٩٣٤ وترجمت الى الانكليزية بعد ذلك بعامين وهي واحدة من هذه الاعمال الكلاسيكية التي تبني ـ مجتمعة ـ قاعدة الانطلاق الفني في هذا القرن .

انها رواية مبنية بدقة ، ويستطيع كاتبها ان يغوص عميقا في النفس البشرية ويستكشف تعقيداتها ويسبر غور بؤس البشر ويعرضها على حقيقتها .

ويبدو آن الكاتب ، الذي لم يتيسر لي ان اعرف الكثير عن حياته ، قد كتب هذه الرواية في مرحلة كان التزامه السياسي التقدمي فيها قويا ويهيمن على جميع رؤاه للامور والناس والاشياء ..

وما همني اكثر من غيره في هذه الرواية هو قدرة الكاتب العبقرية على عرض موقفه السياسي دون شعار واحد ، دون مقطع سياسي واحد ، دون محاضرة واحدة ، دون محاضرة او خطاب او وعظ .

انه يقدم العالم بامانة ، ومن قلب انفعالات وتحركات هذا العالم نستكشف مسار الصراع والتاريخ ، ودور الانسان ، وخصوصا صراع الطبقات وارتظامها وقوة البنى الفوقية وتفاعلها وتقوضها او ترسخها .

ان « سلكا فالكا » هي برهان آخر على ان الفن المتفوق هو بطبيعته تقدمي ، وان الولاء الايديولوجي اليساري يشكل منجم مادة حية لا تفنى لتغذية الفن الموهوب ، وكذلك هي برهان على ان الالتزام السياسي ليس عقبة في وجه الفنان ، بل هو جسر بينه وبين العالم ، ان كان يتزود كفنان بموهبة كافية ..

لحظة !

« ان الحرية .. في ظل النظام الرأسمالي تفيد في جميع الحالات ضمان التمييز في الواقع لصالح الاقوياء . ان لقب بطل العالم في الملاكمة لجميع الفئات مفتوح مبدئيا امام ذوي وزن الريشة وذوي الوزن الثقيل على حد سواء . هناك حرية وعدم تمييز ، ولكن احدا من ذوي وزن الريشة ، او حتى من الوزن المتوسط ، لم يصبح يوما بطل العالم لجميع الفئات » !

بيير جاليه
الامبريالية عام ١٩٧٠
صفحة ٨٥